أبو الفداء: الملك العلّامة

الدكتور محمد كامل عياد

يُعتبر أبو الفداء، الملك المؤيّد عماد الدين إسماعيل بن علي، صاحب حماة من ألمع الشخصيات في تاريخ العرب والإسلام، فهو من أسرة الأمراء الأيوبيين الذين حكموا مصر وبلاد الشام أكثر من ثمانين عاماً وامتازوا بالشجاعة والإقدام، وأبلَوا بلاءً حسناً في محاربة الصليبيين وطردهم من هذه الأقطار ..

ولد أبو الفداء في جمادى الأولى من سنة (٦٧٢) هجرية الموافق تشرين الثاني سنة (١٢٧٣) ميلادية بمدينة دمشق التي كان أهله قد جفلوا إليها من غارة التتر . وبعد انتصار الجيوش الإسلامية على التتر خارج حمص في سنة (٦٨٠)[1] عاد الملك المنصور محمد، صاحب حماة إلى بلده ومعه أهله وأخوه الملك الأفضل والد أبي الفداء . ولمّا انتقل الحكم إلى الملك المظفّر محمود في سنة (٦٨٣) ظل عمه الملك الأفضل يساعده في إدارة الحكومة وقيادة عساكر حماة . وقد رافق أبو الفداء في السنة التالية وهو في الثانية عشرة من عمره أباه، وابن عمه الملك المظفر عند محاربة الفرنج وفتح حصن (المرقب) الشهير[2] . وفي سنة (٦٨٨) ساهم أبو الفداء في الهجوم على طرابلس وتحريرها من الصليبيين[3] . وفي سنة (٦٩٠) أصبح أبو الفداء (أمير عشرة) فعهد إليه بنقل إحدى العجلات

---

(١) راجع كتاب المختصر في أخبار البشر طبعة استانبول سنة ١٢٨٦، المجلد ٤ صفحة ١٥

(٢) المختصر، المجلد ٤ صفحة ٢٣

(٣) المصدر نفسه، صفحة ٢٤

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لحمل المنجنيق العظيم المسمّى المنصوري من حصن الأكراد إلى دمشق ثم إلى عكا . وكان ذلك في أواخر فصل الشتاء . ويبين لنا أبو الفداء في تاريخه (١) ما لاقاه الجنود في الطريق من مصاعب بسبب الأمطار والثلوج ، ثم يصف لنا بدقة مراحل الحصار والقتال في ظروف قاسية زادها شدّة هبوب الرياح العاتية ، وارتفاع أمواج البحر ، وعنف مقاومة الفرنج . وبعد أن نوّه أبو الفداء بشجاعة عسكر حماة أشار إلى أن الفرنج الصليبيين كانوا استولوا على عكّا وأخذوها من السّلطان صلاح الدين الأيوبي ظهر يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة سنة (٥٨٧) فاستعادها الآن في سنة (٦٩٠) السلطان الأشرف صلاح الدين بن قلاوون كذلك يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة .

بعد وفاة والده احتلّ أبو الفداء مكانته في دولة حماة كمساعد لابن عمه الملك المظفر محمود الذي رفع رتبته في الجيش ، فظل يشترك في الحملات العسكرية والحروب ضد التتر والأرمن في الأناضول .

ولما مات الملك المظفر محمود فجأة في سنة (٦٩٨) خرجت مملكة حماة مؤقتاً من أيدي الأسرة الأيوبية — التقوية إذ أنه لم يكن للملك المظفر ولد يستطيع وراثته ، كما لم يتمكن سائر أفراد الأسرة وفي مقدمتهم أبو الفداء وأخواه أسد الدين عمر وبدر الدين حسن من الاتفاق على مرشح لملك حماة (٢) فانتهز السلطان الناصر محمد بن قلاوون هذه الفرصة لإرضاء أحد رفاقه من المماليك هو (قرا سنقر) فأرسله نائباً عنه في حماة ثم تعاقب على هذه النيابة عدد من المماليك حتى سنة (٧١٠) .

وقد عرف أبو الفداء في هذه الفترة كيف يتودد إلى السلطان المملوكي

(١) المختصر ، المجلد ٤ الصفحة ٢٥ – ٢٦
(٢) راجع المختصر ، مجلد ٤ صفحة ٤٣

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

محمد بن قلاوون ويخدمه ويقدم إليه الهدايا ، واستطاع أن ينال ثقته حتى وعده بملك حماة . وساعد على إنجاز الوعد توسط (مهنا بن عيسى) أمير عرب الفضل الذي كان له نفوذ كبير في المملكة ، والذي حصل في سنة ٧١٠ على مرسوم من السلطان بتعيين أبي الفداء نائباً في حماة (١) . وبعد أن تسلّم أبو الفداء مقاليد الأمور لقب بالملك الصالح ، وأخذ يسعى إلى تمتين صلاته بالسلطان الناصر ، حتى عهد إليه في سنة ٧١٢ بالملك عوضاً عن النيابة ، ولقبه بالملك المؤيّد (٢) . وظل أبو الفداء يتردّد على القاهرة من حين إلى آخر ، ويزور السلطان محمد بن قلاوون ويخرج معه إلى الصيد ويرافقه إلى الحج . وكان السلطان يعرف أقدار الرجال ، ويحب أهل العلم ، وقد تأكد من إخلاص أبي الفداء له ، وأعجب بسيرته وبما رآه من آدابه وفضائله ، فكان يكرمه ويحترمه ويعظمه . ولذلك رفع في سنة ٧٢٠ رتبته فألبسه شعار السلطنة (٣) وفوض إليه بأن يفعل في حماة ما يشاء من إقطاع وولاية دون مراجعة القاهرة ، وإنما عليه أن يجرد العسكر من مدينته حماة عند تجنيد الجيوش من مصر والشام ، كما رسم بأن يخطب له على منابر حماة وأعمالها ، وأن يخاطب « بالمقام العالي ، المولوي ، السلطاني ، الملكي ، المؤيدي على ما كان عليه الأمر مع عمه الملك المنصور » (٤) .

إن نجاح أبي الفداء في استعادة ملك أسرته واحتفاظه بمكانة سامية في العهد المملوكي الذي كثرت فيه التقلبات والاضطرابات الداخلية دليل قاطع على ما كان يتحلى به من مهارة وحنكة ومرونة سياسية أشار إليها مؤرخو عصره ...

---

(١) المختصر ٤/٦٣-٦٤ (٢) المصدر نفسه ٤/٧٠-٧١

(٣) المصدر نفسه ٤/٩٠

(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، « طبعة القاهرة ١٣٥٨ » ١٤/٩٥ - ٩٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كذلك برهن أبو الفداء على كفاءة فائقة في إدارة مملكة حماة . فكان كثير العناية بمصالح الناس وحاجاتهم ، عادلاً في أحكامه ، شديد الاهتمام بعمران البلاد وازدهارها . وقد شيد الكثير من المباني الجميلة سواء القصور أو الجوامع أو المدارس أو الحمامات التي ما زال بعضها قائماً ..

ثم إن أبا الفداء كان ، مثل الكثيرين من الأمراء الأيوبيين ، ينظم الشعر الجيد ، ويحب أهل العلم والأدب ، فيقربهم ويشجعهم ويجيزهم بسخاء على مدائحهم له ، بل كان قد خصص رواتب دائمة لبعض الشعراء.

ويقول ابن حجر العسقلاني : « لا أعرف في أحد من الملوك من المدائح ما لابن نباتة والشهاب محمود وغيرهما ، في أبي الفداء إلا سيف الدولة »(١).

وقد أجاد أبو المحاسن بن تغري بردي في تعداد صفات أبي الفداء ومزاياه الجمة إذ قال : « كان ملكاً عالماً ، عادلاً ، سخياً ، جواداً ، ممدحاً ، عاقلاً ، ديناً خيراً ، ذا رأي وتدبير ومعرفة وسياسة ، مع الحلم والرياسة ، صاحب معروف وصدقات ، ذكياً ، فاضلاً ، ذا همة عالية ونفس زكية ، محباً لأهل العلم والخير ، كثير الإكرام لهم ، يعطي العطيات الجزيلة ويجيز على المدائح بالجوائز السنية »(٢) .

أما الشيخ جمال الدين الأسنوي فقد خص أبا الفداء بترجمة عظيمة في كتابه (طبقات الشافعية) وركز اهتمامه على الناحية العلمية وقال إنه « كان جامعاً لاشتات العلوم ، أعجوبة من أعاجيب الدنيا ، ماهراً في الفقه والتفسير والأصلين والنحو وعلم الميقات والفلسفة والمنطق والطب والعَروض والتاريخ ، وغير ذلك من العلوم »(٣) .

---

(١) الدرر الكامنة ، المجلد ١ في ترجمة الملك المؤيد إسماعيل بن علي .
(٢) المنهل الصافي ، المجلد ٩ في ترجمة أبي الفداء .
(٣) نقلاً عن أبي المحاسن في المصدر نفسه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم يروي الأسنوي كيف أن أبا الفداء ، عند قدومه إلى مصـر في إحدى المرّات ، استدعاه إلى مجلسه بصحبة الطبيبين الشهيرين ركن الدين ابن القوبـع والصلاح ابن البرهان فجرى البحث في عدة من العلوم شارك فيها أبو الفداء مشاركة عالم محقق ، ثم انتقل الحديث اتفاقاً إلى علم النبات والحشائش ، فكان كلما ذُكر نبات تكلم على صفاته ، والأرض التي ينبت فيها ، والمنفعة التي فيه ، واستطرد في ذلك استطراداً عجيباً . وهذا الفنُّ هو الذي كان يتبجح الطبيبان ابن القوبـع وابن البرهان بالاختصاص به ، بينما أكثر الأطباء يجهلونه ، فلما خرجا تعجبا إلى الغاية ، وقال الشيـخ ركن الدين : « ما أعلم ملكاً من ملوك المسلمين وصل إلى هذا العلم »[1].

ويتبين من الأخبار أن أبا الفداء كان يمارس الطب عملياً في بعض الأحيان . فقد مرض مرة ولده الملك الأفضل ، وكان يرافقه في رحلة إلى مصر ، فأرسل السلطان رئيس أطبائه الذي صار يأتي إليه بكرة وعشية فيجده حاضراً ليباحثه في سير المرض ، ويقدر الدواء ويمزجه بيده في دست من الفضة . وقد اضطر رئيس الأطبـاء إلى أن يعترف بمهارته في الطب ويقول له : « يا سيدي ، والله ما تحتاج إليّ ، وما أجيء إلا امتثالاً لأمر السلطان »[2] .

وفي الحقيقة فإن أبا الفداء إنما اشتهر في التاريـخ ، قبل كل شيء ، بأنه هو نفسه كان من كبار العلماء العرب . ويتفق المؤرخون الذين بحثوا في سيرته على أنه قد شارك في علوم وفنون كثيرة من فقه وفلسفة وطب وغير ذلك ، وأن أجود ما كان يعرفه ويتقنه علم الهيئة .

(١) المصدر نفسه ١٣
(٢) ابن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ١/١٧

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومما يدعو إلى الإعجاب حقاً أن نشأة أبي الفداء العسكرية واشتراكه في الحروب العديدة ثم مشاغله الإدارية والسياسية ، ورحلاته المتعاقبة إلى مصر للاتصال بالحكام المماليك لم تمنعه جميعاً من الاستمرار في طلب العلم ، واقتناء الكتب القيمة ومطالعتها ، وحضور مجالس العلماء والمشاركة في مناقشاتهم . والأعجب هو أنه فوق كل ذلك ، وجد الوقت الكافي ، وبذل الجهد الضروري ليقوم بتأليف جملة من الكتب النفيسة التي احتلت مكانة سامية ، ونالت شهرة واسعة في الأوساط العلمية ، والتي مازالت تسترعي الاهتمام وتستحق الدراسة .

لقد انكبَّ أبو الفداء على البحث العلمي . ولا يذكر المؤرخون أنه كانت تعقد في قصره مجالس الشرب واللهو ، بل يتفق الجميع على أنه كان متديناً ، وأنه قد انصرف إلى مسامرة الشعراء ، ومحاورة العلماء الذين كان يدعوهم إلى حماة التي أصبحت في عهده مركزاً لحركة ثقافية شاملة . وظل أبو الفداء يتابع الدراسة واقتباس المعرفة وتأليف الكتب طوال عمره ، إلى أن توفي في الثالث والعشرين من المحرم سنة ٧٣٢ هجرية - ١٣٣١ ميلادية .

من الأساتذة الذين تلقى أبو الفداء العلم عنهم نعرف الشيخ أثير الدين عبد الرحمن الأبهري الذي كان بارعاً في الطب والهيئة ، ويتقن الحساب والمساحة والاصطرلاب . وقد أخذ عنه أبو الفداء العلوم الرياضية وأسكنه في حماة وقدمه وأجرى عليه رزقاً (١) .

ويذكر أبو الفداء لنفسه أستاذاً آخر هو قاضي القضاة في حماة الشيخ جمال الدين محمد بن واصل الذي كان يتردد إليه كثيراً ، ويعرض عليه ما يحله من أشكال (اقليدس) ، ويستفيد منه معارف أخرى (٢).

(١) راجع ترجمة حياته في (الدرر الكامنة) ٢/٣٣٩

(٢) المختصر في أخبار البشر ٤/٣٩ - ٤٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

يروي المؤرخون وأصحاب التراجم جملة من الأشعار ، وعلى الأخص الموشحات التي نظمها أبو الفداء ، والتي لم تجمع حتى الآن . وهو قد ألَّف عدداً من الكتب نذكر منها :

١ — نظم كتاب (الحاوي الصغير) في الفقه الشافعي ، تأليف نجم الدين عبد الغفار القزويني .

٢ — كتاب (الموازين) . يقول (رينو) و (دوسلان) في مقدمتها لطبعة كتاب (تقويم البلدان) باريس ١٨٤٠ : إن كتاب (الموازين) ربما كان عبارة عن المنظومة في الفلك المحفوظة مخطوطة منها في مكتبة (بودليان) باكسفورد .

٣ — شرح (نظم الكافية) في النحو لابن الحاجب .

٤ — (التبر المسبوك في تواريخ الملوك) ؛ ذكر فهرس دار الكتب المصرية أنه يتضمن تواريخ المماليك سلاطين مصر والشام .

٥ — (الكناش) ؛ وقد ذهب رينو ودوسلان في مقدمة تقويم البلدان إلى أن (الكناش) كتاب في الطب من عدة مجلدات ، ولكن الأستاذ الدكتور حسن الساعاتي في دراسته عن « منهج أبي الفداء في البحث » التي ألقاها في مهرجان أبي الفداء بدمشق ذكر أنه اطلع على مخطوطة من الكناش بدار الكتب المصرية ، كتب على صفحتها الأولى أن « الكناش » مرتب على سبعة كتب ، وأن المخطوطة المذكورة تؤلف الكتاب الأول الذي يبحث في « النحو والتصريف » ، وجاء على هامش الصفحة الأولى أن الكتب الأخرى تبحث في الفقه ، والطب ، والتاريخ ، والأخلاق ، والسياسة والزهد ، والأشياء ، وفي فنون مختلفة .

على أنه لم ينتقل إلينا من مؤلفات أبي الفداء ولم ينشر سوى الكتابين المشهورين :

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
الجمهورية العربية السورية مجمع اللغة العربية

٦ — تقويم البلدان .

٧ — المختصر في أخبار البشر .

أما كتاب (تقويم البلدان) الذي انتهى أبو الفداء من تأليفه في سنة ٧٢١ هـ فإنه ليس ـ خلافاً لما ادعاه أحد المستشرقين ـ عبارة عن مجموعة هزيلة من المعلومـــات نقلت عن المصادر القديمة [(١)] ، بل إنه موسوعة مبتكرة امتازت بالدقة والشمول والوضوح . وقد اشتهر كتاب « تقويم البلدان » منذ صدوره ونال ثقة جميع الباحثين في العصور التالية فقام العلامة (شمس الدين الذهبي) معاصر أبي الفداء باختصاره والتعليق عليه ، واقتبس عنه (القلقشندي) بعد مدة عصر أجزاء كثيرة في كتابه المشهور (صبح الأعشى) ، ثم قام في أواخر القرن السادس عشر الميلادي (محمد بن علي سباهي زادة) بترجمة مقاطع منه إلى اللغة التركية ، بعد أن رتبه على حروف المعجم ، وأخرجه تحت اسم (أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك)[(٢)] .

كما في الشرق ، كذلك لاقى كتاب (تقويم البلدان) اهتماماً كبيراً في بلاد الغرب ، ونال شهرة واسعة لدى المستشرقين . وقد نشرت أجزاء منه منذ منتصف القرن السابع عشر وترجمت إلى اللغة اللاتينية . ثم عني المستشرقان الفرنسيان رينو ودوسلان بتحقيق المتن العربي ونشره والتصدير له بمقدمة ضافية عن سيرة أبي الفداء وعن كتابه في سنة ١٨٤٠ ، كما قاما بترجمة القسم الأول منه في سنة ١٨٤٨ وتمت ترجمة القسم الثاني من قبل (غيار) في سنة ١٨٨٣ .

---

(١) هكذا قال المستشرق الهولاندي (كرامرس Kramers) راجع كتاب (تراث الإسلام Legacy of Islam) طبعة اكسفورد ١٩٣١ م صفحة ٩١

(٢) راجع حاجي خليفة ، كشف الظنون ٢/٣٩٣ ، طبعة فلوغل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

يقول (رينو) و (دوسلان) : إن كتاب تقويم البلدان يمثل مؤلَّفاً ضخماً في مجاله ، وإن العصور الوسطى الأوروبية لم تعرف كتاباً يمكن مقارنته به . ويعلق المستشرق الروسي (كراتشكوفسكي) على ذلك قائلاً : « لا يزال هذا الحكم صحيحاً في جوهره حتى أيامنا هذه »(١). ويرى المستشرق الطلياني (آماري) أن كتاب (تقويم البلدان) قد حاز الإعجاب لأسلوبه المتزن ونقده القويم . أما الأستاذ (جورج سارتون) صاحب الكتاب المشهور (مدخل إلى تاريخ العلم) فيصرح بأن أبا الفداء كان أعظم جغرافي في عصره (٢) .

وفي الحقيقة فإن أبا الفداء قدم لنا في كتاب (تقويم البلدان) خلاصة المعارف الجغرافية التي توصل إليها علماء العرب قبله . وقد برهن على مقدرة عالية في جمع الموادّ من مظانّها وتمحيصها ، وأجاد في ترتيبها وعَرْضها ، وهو يبين لنا في مقدمة الكتاب طريقته العلمية في البحث ، وهدفه من التأليف إذ يقول : « إني لما طالعت الكتب المؤلفة في البلاد ، ونواحي الأرض والجبال والبحار وغيرها ، لم أجد فيها كتاباً موفياً بغرضي . فمن الكتب التي وقفت عليها في هذا الفن كتاب (ابن حوقل) ، وهو كتاب مطوّل ذكر صفات البلاد مستوفياً ، غير أنه لم يضبط الأسماء ، وكذلك لم يذكر الأطوال والعُروض ، فصار غالب ما ذكره مجهول الاسم والبقعة ؛ ومع جهل ذلك لا تحصل فائدة تامة » . ثم أشار من جهة ثانية إلى أن الكتب المؤلفة في الأطوال والعُروض تهمل تحقيق الأسماء وبيان صفات

---

(١) كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، طبعة لينينغراد ١٩٥٧ ، صفحة ٣٨٩

(٢) G. Sarton : Introduction to The History Science . Vol. 111 p. 793 - 799 .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المدن ، بينما الكتب التي تعنى بتصحيح الأسماء وضبطها لا تتعرض إلى الأطوال والعروض ، وأضاف قائلاً : « ومع الجهل بالأطوال والعُروض يجهل سَمْتُ ذلك البلد فلا يعرف الشرقي منها ولا الغربي ، ولا الجنوبي ولا الشمالي .. ولما وقفنا على ذلك وتأملناه جمعنا في هذا المختصر ما تفرق في الكتب المذكورة ، من غير أن ندعي الإحاطة بجميع البلاد أو بغالبها ، فإن ذلك أمر لا مطمع فيه » .

وقد رجع أبو الفداء إلى مصادر عديدة ليستقي منها موادَّ كتابه ، فاستعان بمؤلفات أشهر الجغرافيين العرب ، مثل (كتاب المسالك والممالك) (لابن حوقل) وكتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) للشريف (الإدريسي) وكتاب المسالك والممالك (لابن خرداذبه) وكتاب (الأقاليم) للاصطخري و (جغرافية الأقاليم السبعة) لابن سعيد المغربي ، وقد اعتمد ، لتحديد خطوط الطول والعرض ، على كتاب (رسم الربع المعمور) المنسوب إلى (بطلميوس) وعلى كتاب (القانون المسعودي) للبيروني وكتاب (التذكرة) للعلاّمة نصير الدين الطوسي ، وعلى الكتاب المعروف باسم (العزيزي) للحسن بن المهلبي الذي لم يصل إلينا ، كما أنه استفاد عند ضبط الأسماء من كتاب (الأنساب) للسمعاني ، وكتاب (اللباب) لابن الأثير وكتاب (المشترك وضعاً والمختلف صقعاً) لياقوت الحموي ، (ولكنه لم يذكر كتابه المشهور « معجم البلدان » الذي ربما لم يكن اطلع عليه) .

على أن أبا الفداء لم يكن يكتفي بالاقتباس والنقل عن هؤلاء المؤلفين ، بل كان دوماً ينسب إلى كل واحد منهم ما أخذه عنه ، ثم يفحص أقوالهم ويقارنها وينتقدها .

تتجلى عبقرية أبي الفداء العلمية في أنه قد استطاع تنسيق المعلومات

شبكة الألوكة
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الكثيرة ، المنوعة التي جمعها من هذه المصادر ، وعرف كيف يختصرها ويختار منها ما هو مناسب وضروري بعد تمحيصه ، كما أنه أحسن ترتيبها وعرضها بطريقة مبتكرة ، في شكل جداول لم يستخدمها جغرافي آخر قبله . كذلك اتبـع تصنيفاً جديداً للأقاليم إذ فرق بين الأقاليم الحقيقية وهي الأقاليم السبعة المعروفة ، الطبيعية أو المناخية ، وبين الاقاليم العرفية التي يقصد بها « كل ناحية أو مملكة تشتمل على عدة كثيرة من الأماكن والبلاد ، مثل الشام والعراق وغيرها » . وقد عدّد ٢٨ إقليماً عرفياً ينقسم بعضها بدوره إلى أقاليم عرفية صغرى ، وقام بدراستها دراسة منهجية ، فذكر في كل إقليم أولاً حدوده وموقعه ، وبعض ظواهره الطبيعية ، ومراكزه البشرية ، ثم انتقل إلى الجداول التي تشتمل على أهم مدن الإقليم وقراه . ويمتدّ كلُّ جدول على صفحتين : في الصفحة الأولى بيان خطوط الطول والعرض ، وتحديد الموقع ، وضبط الأسمـاء لغوياً ؛ وفي الصفحة الثانية ذكر الأوصاف والأخبار العامة بصورة مكثفة ، مع التركيز على الظواهر الطبيعية ، وبعض النشاطات البشرية والاقتصادية والآثار التاريخية . وقـد أشار أبو الفداء عند كل موقع إلى المصادر التي نقل عنها معلوماته ، وهو لا يقتصر هنا على مؤلفـات الجغرافيين السابقين ، بل يستشهد أيضاً بأقوال الرحالة والتجار المعاصرين الذين اجتمع بهم ، أو بمشاهداته الذاتية . وخلافاً لغيره من المؤلفين فإن أبا الفداء يركز البحث على المعلومات الجغرافيـة ، ولا يستطرد إلى المسائل الأدبية والتاريخية والأسطورية .

وبالنظر إلى مستوى علم الجغرافيا في عصر أبي الفـداء ونقص آلات الرصد والقياس فليس غريباً إذا هو وقع في بعض الأخطاء أو نقلها عن غيره . ولا حاجة إلى الوقوف عند هذه الأخطاء لأن أهمية أبحاث أبي الفداء إنما تقاس بالنسبة إلى عصره وبالنسبة إلى الطريقة التي اتبعها في البحث .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومن هذه الوجهة فإن كتابه (تقويم البلدان) قد تضمن خلاصة المعارف الجغرافية في ذلك العصر ، وهو يمتاز على غيره بروح النقد وصحة المعلومات ودقتها وحسن الترتيب ...

أما الكتاب الثاني الذي انتقل إلينا ، ونال أيضاً شهرة واسعة فهو كتاب (المختصر في أخبار البشر) . يقول أبو الفداء في مقدمة الكتاب إنه قد اختاره واختصره على الأخص من كتاب (الكامل في التاريخ) لعز الدين بن الأثير الجزري . ومن المعروف أن ابن الأثير إنما اختصر بدوره كتابه هذا من (تاريخ الأنبياء والملوك) لأبي جعفر الطبري ، مع إضافة فصول عن أيام العرب ، ومعلومات عن المغرب ، ثم سجل الأحداث التي وقعت بعد سنة ٣٠٢ هجرية ، التي كان الطبري وقف عندها لينتهي إلى سنة ٦٢٨ هجرية .

وقد اعتبر كتاب (الكامل) خير ما أُلِّف من كتب الحوليات في التاريخ الإسلامي ، لما امتاز به من مادة غزيرة ، وتبويب حسن ، وأسلوب شيِّق ، ولغة دقيقة ، واضحة . على الرغم من ذلك فإن ابن الأثير قد غفل عن بعض الحوادث الهامّة ، ووقع في كثير من الأخطاء ، عدا أنه كان يهمل في الغالب ذكر مصادره ، وينحرف أحياناً ويتحزب . وقد لاحظ أبو الفداء هذه الشوائب ، وعرف أن كتاب (الكامل) ليس كاملاً من جميع الوجوه ، وكان من الطبيعي أن لا يقتصر عالم محقق ، واسع الاطلاع مثله على النقل والاقتباس ، بل لا بدّ له من أن يسعى إلى التأكد من صحة الأخبار ، وإلى ضبط التواريخ ، والأسماء بالرجوع إلى المصادر الموثوقة . ولهذه الغاية استعان أبو الفداء بمجموعة من المؤلفات القيمة التي قلما نجد لبعضها ذكراً عند غيره من المؤرخين . فعلاوة على كتب معروفة مثل (تجارب الأمم) لابن مسكويه ، و (وفيات الأعيان) لابن خلكان ،

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
الجمهورية العربية السورية مجمع اللغة العربية

و (تاريخ اليمن) للفقيه عمارة اليمني ، و (المغرب في أخبار أهل المغرب) لابن سعيد المغربي ، وكتاب (مفرج الكروب في أخبار بني أيوب) للقاضي جمال الدين بن واصل ، اعتمد أبو الفداء بصورة خاصة على (كتاب البيان عن تاريخ سني الزمان على سبيل الحجة والبرهان) لأبي عيسى بن المنجم ، ثم على (تاريخ سني ملوك الأرض) لحمزة الأصفهاني (١) .

وهنا لا بد من التساؤل : من هو أبو عيسى بن المنجم ؟ لقد ورد ذكره في كتاب (الفهرست) لابن النديم (٢) ، الذي يروي أخبار آل المنجم جميعاً ، ويقول إن جد الأسرة (يحيى بن أبي منصور) هو فارسي ، اشتغل بالنجوم ، وأسلم على يد الخليفة المأمون . وقد نبغ عدد من أولاده وأحفاده ، فاشتهر بعضهم بالأدب ورواية الشعر والتأليف في مختلف الفنون ومنادمة الخلفاء . ثم يقول ابن النديم : « ومن أفاضل آل المنجم أبو عيسى أحمد بن علي بن يحيى ، له من الكتب (كتاب تاريخ سني العالم) » دون أن يذكر شيئاً عن تاريخ مولد المؤلف أو موته أو عن محتوى الكتاب . ولكنه في ترجمة أخيه أبي عبد الله هارون يخبرنا أن هذا توفي في سنة ٢٨٨ هـ . ومن ذلك نستطيع أن نستنتج أنه عاش في أواخر القرن الثالث الهجري ، ويمكننا أن نتفق مع المستشرق (روزنتال F. Rosenthal) الذي يقول في كتابه (علم التاريخ عند المسلمين) (٣) : إن أبا عيسى بن المنجم ألف كتاب (تاريخ سني العالم) قبل الطبري بعدة عقود ، ثم يضيف قائلاً : إن هذا التاريخ ربما كان بحثاً مرتباً حسب السنين على النمط اليهودي - المسيحي يبدأ

---

(١) راجع المختصر في أخبار البشر ٣/١

(٢) ابن النديم ، الفهرست : طبعة القاهرة ١٣٤٨ هـ ، صفحة ٢٠٧

(٣) روزنتال ، علم التاريخ عند المسلمين ، ترجمة الدكتور أحمد صالح العلي ، طبعة بغداد ١٩٦٣ ، صفحة ١٠٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

منذ الخليقة وهبوط آدم والطوفان ، ويروي قصص الأنبياء وأخبار الفرس واليونان والروم ، وإنه ربما لم يتطرق إلى تاريخ الإسلام قط . ومن المؤسف أن الكتاب لم يكتب له الانتشار ولم يصل إلينا .

ومهما كان الأمر فإن أبا الفداء في القسم الأول من (المختصر في أخبار البشر) الخاص بالأمم القديمة ، يعتمد كل الاعتماد على كتاب أبي عيسى المنجم الذي يبدو أنه قد استقى معلوماته من مصادر سريانية وبزنطية . فهو ، عند تحديد تاريخ (هيلين) و (موسى) مثلاً يستند إلى كتاب (الردّ على جوليان) الذي ألفه (كيرلّس Cyrillis) رئيس أساقفة الاسكندرية في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي . وهو يقول : « المنقول عن أصحاب السير من اليونان : أن (أميرس) أي [هوميروس] الشاعر اليوناني كان موجوداً في سنة ٥٦٨ لوفاة موسى »[١] . ونلاحظ أن هذا التحديد الزمني ينطبق على التقديرات الحديثة .

وعلى وجه الإجمال فإن الأخبار التي اقتبسها أبو الفداء عن أبي عيسى ابن المنجم فيما يتعلق باليونانيين والرومان تمتاز بالدقة ، وتقرب كثيراً من الصحة ، خلافاً لما يرويه أكثر المؤرخين العرب من قصص خيالية وأساطير . وقد أقدم أبو الفداء مرة واحدة على معارضة رواية أبي عيسى ، ولكن من المصادفات الغريبة أنه كان هو المخطيء في هذه الحالة . فقد ذكر أبو عيسى أن (طاليس) الملطي ، وهو أول فلاسفة اليونان ، كان في زمن (بخت نصر) . وهذا صحيح ، إذ حكم (بخت نصر) بين سنة ٦٠٥ و ٥٦٢ قبل الميلاد وعاش (طاليس) بين ٦٤٠ و ٥٤٦ قبل الميلاد . ولكن أبا الفداء رجع إلى كتاب (الملل والنحل) للشهرستاني الذي ذكر

---

(١) المختصر في أخبار البشر ٨٨/١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أن الفيلسوف اليوناني (فيثاغوراس) [وهو متأخر عن طاليس] كان في زمن (سليمان) وأنه أخذ الحكمة من « منبع النبوة » (١) . وهنا أخذ أبو الفداء يحسب التواريخ القديمة فتبين له أن (بخت نصر) قد عاش بعد سليمان بأكثر من ٤٠٠ سنة واستنتج من ذلك أن قول (أبي عيسى) بأن الفلسفة اليونانية ظهرت في عهـــد (بخت نصر) غير مطابق لما ذكره الشهرستاني الذي اعتمد عليه دون مبرّر إلاّ أن يكون قد استهواه قول (الشهرستاني) بأن (فيثاغوراس) أخذ الحكمة من « معدن النبوة » ...

أما حمزة الأصفهاني الذي كان ، على الرغم من نزعته الشعوبية ، مشهوداً له بالفضل والمعرفة الواسعة ، والنظرة الفاحصة ، والآراء الجريئة ، فقد تأثر أبو الفداء بطريقته الانتقادية في ضبط التواريخ وتحقيقها . وهو في كتابه (تاريخ سني الملوك) يذكر ملوك الفرس والروم وغيرهم فضلاً عن أنساب حمير ، وسائر دول العرب من غسّان ولخم وكندة ، وكان اهتمامه منصرفاً إلى تحقيق سني الولادة والوفاة ومدة الحكم . وفي كتابه قائمة بأسماء الكتب الفارسية الكثيرة التي استقى منها معلوماته . وقد لاحظ أبو الفداء أن الأخبار المأخوذة عن المؤرخين قبل الإسلام مضطربة جداً ، لأنهم كانوا يؤرخون من ابتداء ملك كل من تملك منهم فكثرت بدايات تواريخهم ، وكان هذا ، كما قال حمزة الأصفهاني : « سبباً في فساد تواريخهم فساداً لا مطمع في إصلاحه ، مع ما انضم إلى ذلك من بعد العهد ، وتغير اللغات ، وقدم الكتب المؤلفة في هذا الفن ، فصار تحقيق التواريخ القديمة متعذراً أو في غاية التعسر . » (٢)

وقد تأثر أبو الفداء أيضاً بأبحاث (أبي الريحان البيروني) الذي يعتبر من أكبر العلماء والمفكرين المسلمين . إلاّ أنه قد اقتصر على كتاب واحد

(١) المصدر السابق ٨٨/١ (٢) المصدر السابق ٤/١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من مؤلفاته هو (القانون المسعودي) في الهيئة والنجوم الذي استفاد منه عند تأليف كتاب (تقويم البلدان) ونقل رأي (البيروني) في مساحة الأقاليم السبعة، ومقارنته بين أبحاث الهنود واليونانيين، وتصريحه القائل: «الروم والهند أصدق سائر الأمم عناية بهذه الصناعة، (يقصد علم الهيئة ووصف المعمورة) ولكن الهند لايبلغون غاية اليونانيين فيعترفون لهم بالتقدم، ولمثله نميل إلى آرائهم ونؤثرها»(١). وقد اقتبس أبو الفداء عن كتاب (القانون المسعودي) بعض المعلومات التاريخية المتعلقة بقياصرة الرومان.(٢) وكان من المنتظر أن يستفيد أبو الفداء من كتابين آخرين للبيروني لهما صلة بالتاريخ هما كتاب (تحقيق ما للهند من مقولة) وكتاب (الآثار الباقية عن القرون الخالية) ولكن الكتاب الأول لايأتي ذكره أبداً عند أبي الفداء، بينما يشير الى الكتاب الثاني مرة واحدة، وذلك عند شرح اسم (اليهود) فينقل عن الشهرستاني قوله بأن هذا الاسم مشتق من هاد الرجل أي رجع وتاب، وأنه إنما لزمهم لقول موسى: «إنا هدنا إليك» أي رجعنا وتضرعنا ثم يضيف أبو الفداء هنا ما قاله (البيروني) من أن ذلك ليس بشيء، وأن اسم اليهود إنما أطلق عليهم نسبة الى (يهوذا) أحد الأسباط، فإن الملك استقر في ذريته وأبدلت الذال المعجمة دالاً مهملة كما يوجد في كلام العرب.(٣)

وقد استند أبو الفداء أيضاً إلى التوراة التي اعتبرها من أهمّ المصادر لمعرفة التواريخ القديمة. إلا أنّه لاحظ الاختلافات الكبيرة بين نسخ التوراة الثلاث المتداولة وهي السامرية والعبرانية واليونانية، فقال: إن الأولى والثانية «مفسودتان» وإن المحققين من المؤرخين قد اختاروا التوراة اليونانية التي ليس فيها ما يقتضي الإنكار من جهة الماضي من عمر الزمان. ثم

---

(١) أبو الفداء، تقويم البلدان صفحة ١١
(٢) المختصر في أخبار البشر ١/٦٤ - ٦٥
(٣) المصدر نفسه ١/٩١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أشار أبو الفداء الى الأسطورة التي نسجت حول نقل هذه التوراة من العبرانية في عهد الملك بطلميوس الثاني (فيلادلفوس) وصرح بأنه قد اعتمد عليها دون غيرها في تحديد بعض التواريخ.[١] أما في سبيل قراءة الأسماء، فيقول إنه أحضر نسخة عبرانية لسفري القضاة والملوك، ثم أحضر شخصاً عارفاً باللغتين العربية والعبرانية فاستعان به عند ضبط الأسماء التي كانت فيها أحرف ليست من حروف العربي، وفيها إمالات ومدّات لايمكن أن تعلم إلاّ مشافهة.»[٢]

إلى جانب المصادر الرئيسية العامّة كان أبو الفداء يرجع في موضوعات معينة إلى الكتب الاختصاصية، فنراه مثلاً عند استعراض أسماء الفراعنة يعتمد على كتاب خاصّ بملوك مصر في قديم الزمان لمؤلف اسمه (ابن حنون الطبري) لانعرف عنه شيئاً. على أنه لما نقل عن التوراة أن فرعون الذي غزا بني إسرائيل في أيام (رحبعام بن سليمان) هو (شيشاق) [أي ششنق الأول مؤسس الأسرة الليبية] علق على ذلك قائلاً: «وهو الأصح» أي أصح من اسم (بولة) الذي ذكره (ابن حنون).[٣]

وفي الفصل الخاصّ بأمـــة اليونان نقل أبو الفداء تراجم حياة فلاسفة اليونان الكبار سقراط وافلاطون وآرسطو عن الشهرستاني، إلاّ أنه استعان أيضاً بكتاب (تاريخ الحكماء) لابن القفطي في سبيل معرفة أسماء الفلاسفة اليونانيين المتأخرين، وعلى الأخص الذين عاشوا منهم في الاسكندرية، واشتغلوا بالعلوم الرياضية والطب[٤] والذين لم يتعرض إليهم الشهرستاني.

كذلك في قسم التواريخ الإسلامية كان أبو الفداء يرجع في كثير من

(١) المختصر ١/٦
(٢) المختصر ١/٣٢
(٣) المختصر ١/٦١
(٤) المختصر ١/٩٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الموضوعات إلى مؤلفات الاختصاصيين لتلافي النقص أو تصحيح الأخطاء.
فنراه مثلاً عند الكلام على غارة التتر، التي يصفها بأنها كانت أعظم مصيبة نكب بها المسلمون، يعتمد على كتاب (تاريخ ظهور التتر) تأليف (محمد بن أحمد النسوي) الذي كان كاتب الإنشاء لدى جلال الدين بن محمد خوارزم شاه، وكان رافقه في حروبه ضد التتر، وأصبح أخبر الناس بأحوال الخوارزميين وجيرانهم، فنقل عنه أبو الفداء وصف بلاد الصين وأخبار نشأة جنكيز خان، وحروب المغول والتتر.[1]

إن تفكير أبي الفداء كان يسيطر عليه الاتجاه الرياضي. فهو مولع باستقصاء المعلومات ومقارنتها وتمحيصها وبحساب التواريخ وضبطها. وقد رجع إلى كتاب (الجمع والبيان في أخبار القيروان) لأبي العرب الصنهاجي للتحقق من تاريخ مقتل أبي عبد الله الشيعي، داعية المهدي مؤسس الدولة الفاطمية، إذ أورده ابن الأثير في سنة (٢٩٦) في حين ذكر الصنهاجي: إن ذلك في سنة (٢٩٨)، ويضيف أبو الفداء قائلاً: «وهو الأصح عندي، كما ذكر ذلك ابن خلكان أيضاً»[2]. وعند البحث في دولة بني حماد بافريقية في أواخر القرن الرابع يقتبس أبو الفداء معلوماته من كتاب الصنهاجي أيضاً. أما أخبار دولة الحفصيين، ملوك تونس في القرن السابع، فيقول إنه نقلها من الشيخ ركن الدين بن القوبع التونسي[3]، وهو الطبيب المشهور الذي اجتمع به في القاهرة كما ذكرنا سابقاً.

أورد ابن الأثير موت محمود بن شبل الدولة بن صالح بن مرداس، صاحب حلب، في (٤٦٩). فعلق أبو الفداء على ذلك قائلاً: «لكنني وجدت في تاريخ حلب تأليف كمال الدين المعروف بابن العديم أن محموداً

(١) المختصر ٣/١٢٩
(٢) المختصر ٢/٧٠
(٣) المختصر ٣/١٩٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المذكور مرض في سنة (٤٦٧) وحدث به قروح في الأمعاء مات بها في تلك السنة ذاتها، فملك بعده ابنه نصر الذي لم يذكر ابن الأثير تاريخ مقتله، بينما قال ابن العديم إن ذلك كان يوم الأحد مستهل شوال سنة (٤٦٩)(١). ثم ذكر ابن الأثير أن قلعة (شيزر) القريبة من حماة لم تزل لبني منقذ يتوارثونها من أيام (صالح بن مرداس). ولكن أبا الفداء صرح بأن الأمر ليس كذلك لأن ابن مرداس توفي سنة (٤٢٠) بينما كان تملك (بني منقذ) لشيزر في سنة (٤٧٤) أي بعد مدة أربع وخمسين سنة. ويضيف أبو الفداء قائلاً: «ونحن نورد أخبار بني منقذ محققة حسبما نقلناها من تاريخ مؤيد الدولة أسامة بن مرشد وهو أفضل بني منقذ.»(٢)

كان أبو الفداء يحرص على تقصي الأخبار الهامة من جميع المصادر. ومن الأمثلة على ذلك ما يرويه عن قاضي القضاة جمال الدين بن واصل الذي كان يتردّد عليه للدراسة كما سبق ذكره. فإن (ابن واصل) كان قد توجه في سنة (٦٥٩) هجرية (١٢٦١ ميلادية) رسولاً من قبل الملك (الظاهر بيبرس) إلى الامبراطور (مانفريد). ويبدو أن أبا الفداء قد سأله عن مشاهداته في ايطالية، فعلم منه أن كلمة امبراطور معناها ملك الأمراء وأن مملكة (مانفريد) تشمل جزيرة (صقلية) وبلاد (آبولية) و (لومباردية) من البرّ الطويل (أي ايطاليا كما كانوا يسمّونها) وأن الامبراطور (مانفريد) كان، مثل والده الامبراطور (فريدريك الثاني) مصافياً للمسلمين ومحباً للعلوم، وقد أكرم (ابن واصل) الذي صنف له كتاباً في المنطق بعنوان (الامبروزية) نسبة إلى الامبراطور. وذكر (ابن واصل) أنه أقام في مدينة من مدائن (آبولية) تبعد عن (رومية) مسيرة خمسة أيام (يقصد بذلك مدينة (فوجيا) وأن هناك بالقرب منها مدينة تسمى (لوجارا) أي

(١) المختصر ٢/٢٠٢ المختصر ٣/٣٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net
الجمهورية العربية السورية مجمع اللغة العربية

(Lugera) ، أهلها كلهم مسلمون ، كان قد نقلهم الامبراطور (فريدريك الثاني) من صقلية ليكونوا حرساً خاصاً له . وكان أكثر أصحاب الامبراطور (مانفريد) مسلمين ، ويعلن في معسكره بالأذان للصلاة .[١]

كان أبو الفداء يتحلى بحس تاريخي حقيقي يساعده على تمييز الحوادث الهامة من غيرها ، وعلى نقد الرواة ، وتمحيص الأخبار ، واصطفاء المعلومات الموثوقة . وهو لم يكن ليخفى عليه أن كتب التاريخ مملوءة بكثير من القصص الخرافية والأساطير ، وأن الأخبار التي تتناقلها عن تعاقب الملوك والحكام والقادة ووصف الحروب والانقلابات وذكر الكوارث الطبيعية ، ليست جميعها مما يستحق التسجيل والحفظ . إنه كان يدرك أن أهمية الحادث التاريخي تقاس بمدى تأثيره في الأوضاع الحاضرة والمستقبلة . واذا كنا لا ننكر أن كتاب (المختصر في أخبار البشر) لا يخلو من بعض الحوادث التافهة والأخبار المشبوهة والقصص السخيفة فلابد لنا من الاعتراف بأن هذه الشوائب قليلة وأنه ، عند مقارنته مع نظرائه ، يبرهن على نزعة علمية ونظرة انتقادية وتفكير عقلاني . إنه ، بالإجمال ، يمتاز على كثير من كتب التاريخ باقتصاره على الأمور الهامة ، والأخبار الصحيحة .

إن أبا الفداء ، بعد أن ينقل قصص الأنبياء كما كانت ترويها اذ ذاك كافة المؤلفات التاريخية في الشرق والغرب بالاستناد الى شهادة الكتب المقدسة ، يبدأ في ذكر طبقات ملوك الفرس ويقول إن ملوك الطبقة الأولى القديمة « تروي عن مُدَد ملكهم وحروبهم أموراً يأباها العقل ، ويمجها السمع ، فأضربنا عنها لذلك ، ولم نذكر إلا ما يقرب إلى الذهن صحته »[٢]. عوضاً عن ذكر التواريخ غير المحققة وجه أبو الفداء اهتمامه إلى

---

(١) المختصر ٤٠/٤ (٢) المختصر ٤١/١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أساليب الإدارة والسياسة لدى ملوك الفرس القدماء ، كما لخص مبادىء ديانة (زرادشت) ، ثم تعاليم (مزدك) التي تدعو الى التساوي في الأموال بين الناس ، والاشتراك في النساء ، والتي تؤمن بالتنجيم والطلاسم[1] ، والتي كان لها تأثير كبير في آراء بعض الفرق حتى العهد الإسلامي مثل القرامطة .

وعند ذكر أمة القبط نقل أبو الفداء عن كتاب (طبقات الأمم) لصاعد الأندلسي قوله : « إن سكّان مصر كانوا أهل ملك عظيم في الدهور الخالية ، وظهر بينهم علماء بضروب العلوم ، خاصة الطلسمات والنيرنجات والكيمياء ؛ وأنهم كانوا أخلاطاً من الأمم مـــا بين قبط ويونان وعماليق وروم وغيرهم ، وذلك لكثرة من تداول عليهم فإن أكثر من تملك مصر هم الغرباء »[2] .

ولمـــا تكلم على اليونان قال : إنهم كانوا طوائف قبل (فيلبس المكدوني) وبعد أن ذكر الإسكندر وخلفاءه ، استعرض فلاسفة اليونان ، وبحث في آرائهم ومؤلفاتهم ، ونقل عن كتاب (أبي عيسى بن المنجم) قوله : « كان اليونانيون أهل شعر وفصاحة ، ثم صارت فيهم الفلسفة ، وجميع العلوم العقلية مأخوذة عنهم ، مثل العلوم المنطقية والطبيعية والآلهية والرياضية ، وكانوا يسمون العلم الرياضي (جومطريا) وهو المشتمل على علم الهيئة والهندسة والحساب والألحان والإيقاع وغير ذلك . وكان العالم بهذه العلوم يسمّى فيلسوفاً وتفسيره : محب الحكمة »[3] .

وعند ذكر أمة الصين قال : « أما بلاد الصين فطويلة ، عريضة ، ويشتمل عرضها على الأقالـــيم السبعة . وأهل الصين أحسن الناس سياسة وأكثرهم عدلاً ، وهم أحذق خلق الله بنقش وتصوير وسائر الصناعات »[4] .

---

(١) المصدر نفسه ١/٥٣
(٢) المصدر نفسه ١/٥٩ و ٨٦
(٣) » » ١/٨٩
(٤) » » ١/١٠١-١٠٢

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كان أبو الفداء يكتفي هنا بالصفات العامّة التي اشتهرت بها مختلف الأمم ، لأنه لم يكن في استطاعته أن يعرف عنها تواريــخ مضبوطة ، ولأن مقصده من تأليف المختصر رســم صورة مجملة ، واضحة عن تاريخ البشرية .

عندما تعرّض أبو الفداء إلى بلاد (عاد) التي تعرف بالأحقاف ، قال : « لقد كثر الاختلاف في أمرهم وجميع ما ذكر من ذلك مضطوب ، غير قريب للصحة ، فأضربنا عنه »(١) . وعند ذكر ملوك كندة أشار إلى قصّة امرىء القيس التي تروي أن مليك الروم دسّ له السّم في حلة فقال : « وهذا عندي من الخرافات » (٢) .

وفي الواقع كان أبو الفداء يتحاشى دوماً رواية القصص الخرافيــة التي كانت تزخر بها كتب المؤرخين المعاصرين له ، والتي كان يجاهر بمكافحتها . وقد نقل عن ابن الأثير أن الناس بالموصل أصابهم في سنة (٦٠٠) وجع في حلوقهم فشاع أن امرأة من الجنّ يقال لها أم عنقود مات ابنها ، وأن كل من لايعمل مأتماً يصيبه هـــذا المرض . فكان النساء وأوباش الناس يلطمون على عنقود ويقولون : « ياأم عنقود اعذرينا ، قد مات عنقود ومادرينا » . ثم يضيف أبو الفداء قائلاً : « وإنما أوردنا هـذا لأن رعاع الناس إلى يومنا هذا وهـــو سنة ٧١٥ يقولون بأم عنقود وحديثها ليعلم تاريـخ هذا الهذيان متى كان »(٣) . ورأي أبي الفداء هذا صحيــح ، فإن أفضل وسيلة لتحرير عقول الناس من الخرافات والأساطير هي الدراسـة التاريخية للقصص الغريبة والكشف عن حقيقة أمرها وبيان كيفية نشأتها ومراحل تطورها .

(١) المصدر نفسه ١٠٣/١
(٢) المصدر نفسه ٧٩/١
(٣) » » ١٩٤/٢

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بقدر ما كان أبو الفداء يعرض عن رواية الأساطير والخرافات والقصص العجيبة كان يحرص ، بالعكس ، على الإكثار من الأخبار والأبحاث العلمية . هكذا يذكر في حوادث سنة (٢٥٩) هجرية وفاة (محمد بن موسى ابن شاكر) ، أحد الإخوة الثلاثة الذين يقول : « إنه كانت لهم همم عالية في تحصيل العلوم القديمة ، وكان الغالب عليهم الهندسة والحيل (أي الميكانيك) والموسيقى » . ثم أخذ يبحث في المهمة التي عهد بها إليهم الخليفة المأمون ، وهي تحقيق ماورد في كتب الأوائل عن دور الأرض (أي محيطها) ، فشرح بالتفصيل كيف ساروا إلى صحراء سنجار ومسحوا درجة الطول.[١]

ولما سجل أبو الفداء بين حوادث سنة (٦٤٩) وفاة الشيخ (علم الدين قيصر) المعروف (بتعاسيف) قال عنه بأنه كان إماماً في العلوم الرياضية ومهندساً فاضلاً ، وذكر أن الملك المظفر ، صاحب حماة ، استخدمه فبنى له أبراجاً بحماة ، وطاحوناً على النهر العاصي ، وعمل له كرة من الخشب مدهونة رسم عليها جميع الكواكب المرصودة . ونقل عن القاضي (ابن واصل) قوله : « وقد ساعدت الشيخ علم الدين على عمل هذه الكرة في حماة . وكان الملك المظفر يحضر ونحن نرسمها ويسأل عن مواضع دقيقة فيها . »[٢] و (تعاسيف) هذا هو الذي طلب منه الملك (الكامل) الإجابة على المسائل الرياضية والفلسفية التي أرسلها إليه الامبرطور (فريدريك الثاني).[٣]

كان المؤرخون قد بدأوا منذ صدر الإسلام يهتمون بتراجم أحوال الصحابة والتابعين ورواة الحديث ، فنشأت كتب (الطبقات) الأولى لهؤلاء ، ثم اتسعت دائرة الاهتمام حتى شملت الفقهاء والمتصوفين والنحاة والشعراء والأدباء والفلاسفة والأطباء وغيرهم . وفي هذا الصدد أبدى المستشرق النمساوي

---

(١) المصدر نفسه ٢/٥١ - ٥٢ (٢) المصدر نفسه ٣/١٨١

(٣) راجع المقريزي ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ٢٣٢

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(شبرنغر Sprenger) الملاحظة التاليـة : « من المبادىء الأساسية النبيلة عند العرب والمسلمين احترام الذات والكرامة الشخصية . فإن لكل فرد قيمته ومكانته . لذلك فإن الكتب التي ألفها المسلمون في التراجم والأنساب تفوق في عددها كل ما كتبته الأمم الأخرى السابقة والمعاصرة لهم معاً » .

ولم يقتصر الأمر على كتب التراجم بل إن التواريخ العامّة ، وبالأخص الحوليات جميعاً تشتمل أيضاً على سير الكثيرين من (الأعيان) . ومثل غيره من مؤلفي الحوليات كان أبو الفداء أيضاً يذكر ضمن حوادث كلّ سنة المشاهير الذين ماتوا فيها . إلا أنّ هناك فرقاً بينه وبين أكثر المؤرخين المعاصرين الذين يحشرون أكبر عدد ممكن من أسماء الأشخاص ، سواء كانوا بارزين حقاً أو مجرد مشتغلين بالقراءة والحفظ أو الخطابة والوعظ . فقد كان أبو الفداء يقتصر على الشخصيات البارزة من كبار علماء اللغة والأدباء والشعراء ، ويؤثر على الأخص الأطباء والمهندسين والفلاسفة . وكان بارعاً في تصوير حياة هؤلاء المشاهير بكلمات قليلة تبرز الصفات الجوهرية ، وتكشف عن الخصائص المميزة ، كما كان يروي عن أبطاله بعض الأقوال والأشعار والقصص التي تعكس أحوال البيئة والظروف التاريخية ، وتتضمن أحياناً نقداً ، ولا تخلو أحياناً أخرى من نكتة ظريفة ، أو دعابة لطيفة . هكذا كتب أبو الفداء تراجم وافيـة جيدة لأبي بكر الرازي ، والفارابي ، وابن سينا ، ونصير الدين الطوسي ، ثم للشافعي ، والأشعري ، وسيبويه ، والفراء ، والجاحظ ، والطبري ، وابن الأثير . وقد تكلم بإسهاب عن الإمام فخر الدين الرازي الذي يصفه بأنه كان أوحد زمانه في المعقولات والأصول ، ثم يروي كيف ثار عليه في سنة (٥٩٥) فقهاء الكرامية والحنفية بهراة في ما وراء النهر ، ونسبوه إلى الزندقة ومذهب الفلاسفة ، فاضطر أن يلجأ إلى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

صاحب (غزنة) ، وإلى السلطان خوارزم شاه اللذين حظي لديهما ، وينقل من نظم فخر الدين الرازي الأبيات التالية :(١)

نهاية إقــدام العقول عقال   وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا   وحاصل دنيانـــا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا   سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ويروي أبو الفداء قصة أمين الدولة بن التلميذ الذي كان طبيب دار الخلافة في عهد المقتفي ، ويصفه بأنه كان حاذقـــاً ، فاضلاً ، ظريف الشخص ، عالي الهمة ، مصيب الفكر ، ويقول عنه إنه كان شيخ النصارى وقسيسهم ، وله في الأدب يد طولى ، وكان متفنناً في العلوم ، وخلف تصانيف حسنة ، منها كتاب (اقراباذين) وهو المعتمد عليه عند الأطباء . ومن معاصري ابن التلميذ أبو البركات بن ملكان الحكيم صاحب كتاب المعتبر في الحكمة . وكان بينهما تنافس كما يقع كثيراً بين أهل كل صنعة . وكان أبو البركات يهودياً ثم أسلم في آخر عمره ، وكان متكبراً ، بخلاف ابن التلميذ الذي عرف بالتواضع ، فنظم فيه هذه الأبيات :

لنا صديق يهودي ، حماقتـه   إذا تكلم تبدو فيه من فيه
يتيه والكلب أعلى منـه منزلة   كأنه بعدُ لم يخرج من التيه (٢)

وفي حوادث سنة ٥٨٤ يذكر أبو الفداء وفاة محمد بن الكاتب المعروف بالتعاويذي ، الشاعر المشهـور الذي شاعت قصائده في الغزل والنسيب ، والذي له غير ذلك أشياء حسنة أيضاً ، منها الأبيات التي صنعها على أثر مصادرة جماعة من أهل الدواوين في بغداد وهي :

يا قاصداً بغداد جز عن بلدةٍ   للجور فيهـــا زجرة وعتاب

---

(١) المختصر ٣/١٠١ - ١٠٢ و ١١٨   (٢) المختصر ٣/٤٥

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إن كنت طالب حاجةٍ فارجـع فقد
سُـدّت على الراجي بهـا الأبواب
والناس قد قامت قيامتهم فـلا أنساب بينهم ولا أسبـاب
والمرء يسلمـه أبوه وعرسـه ويخونه القربـاء والأحباب
لا شافـع تغني شفاعتـه ولا جـان له مما جناه متـاب (١)

وفي حوادث سنة ٦١٢ يتعرض أبو الفداء إلى الوجيه المبارك بن أبي الأزهر الذي اشتغل بعلم العربية وولي تدريس النحو بالمدرسة النظامية في بغداد ، وكان حنبلياً ، ثم انتقل إلى مذهب أبي حنيفة ، ثم صار شافعياً ، فقال فيه أبو البركات زيد التكريتي :

ألا مبلغ عني الوجيه رسالة وإن كان لا تجدي إليه الرسائل
تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل وفارقته إذ أعوزتك المآكل
وما اخترت رأي الشافعي تديناً ولكنما تهوى الذي هو حاصل
وعمـا قليل أنت لا شك صائر
إلى مالك فافطن (لمـا) أنت قائل (٢)

وفي سنة ٦٣٤ — ٦٣٥ أوفد الخليفة أبو جعفر المستنصر بالله رسولاً لتهنئة الملك (العادل) بالسلطنة واستخلافه للمستنصر وللإصلاح بين العادل وأخيه الصالح أيوب ، وكان هذا السفير هو محيي الدين يوسف بن أبي الفرج الجوزي ، الذي سبق له القيام بمثل هذه المهمة في مناسبات أخرى ، وقد اتفق أن مات في حضوره أربعة من السلاطين العظماء : هم الملك (الكامل) صاحب مصر ، وأخوه (الأشرف) صاحب دمشق ، و (العزيز) صاحب حلب ، و (كيقباذ) صاحب بلاد الروم ، فقال في ذلك (ابن المسجف) ، أحد شعراء دمشق :

(١) المختصر ٣/٨٠ (٢) المصدر نفسه ٣/١٢٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يا إمام الهدى أبا جعفر المنـ صور يا من له الفخـار الأثيل
ماجرى من رسولك الآن محيي الـدّين في هـذه البلاد قليل
جاء والأرض بالسلاطين تزهى وغدا والديـار منهم طلول
أفقر الروم والشآم ومصر أفهـذا مغسّل أم رسول ؟[1]

وعندما تكلم أبو الفداء على استسلام الصليبيين المحاصرين في (دمياط) وعلى رأسهم ملك فرنسا (لويس التاسع) في يوم الجمعة لثلاث مضين من صفر سنة ٦٤٨ الموافق ٦ أيار سنة ١٢٥٠ وورود البشرى بذلك إلى سائر الأقطار ، ذكر الأبيات التي نظمها الشاعر جمال الدين يحيى بن مطروح بهذه المناسبة وهي :

قل للفرنسيس إذا جئته مقـال صدق عن قؤول نصيحْ
أتيت مصراً تبتغي ملكها تحسب أن الزمر يا طبل ريح
وكل أصحابك أوردتهم بحسن تدبيرك بطن الضريح
خمسون ألفاً لا يرى منهم غير قتيـل أو أسير جريح
وقل لهم إن أضمروا عودة لأخذ ثـأر أو لقصد صحيح
دار ابن لقمان على حالها
والقيـد باقي والطواشي صبيح[2]

[دار لقمان هي التي كان ينزلها كاتب الإنشاء فخر الدين بن لقمان والتي سكن فيها ملك فرنسا بعد أسره ، ووكل به الطواشي صبيح المعظمي لحراسته] .

لا شك في أن كتاب (المختصر في أخبار البشر) لأبي الفداء ينقصه الكثير من المزايا التي نجدها في كتاب (الكامل) لابن الأثير مثل تنوع

(١) المختصر ٣/١٧١-١٧٢ (٢) المصدر نفسه ٣/١٩٠ - ١٩١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المعلومات ، ووفرة الوثائق ، والتوازن بين مختلف العصور والأقاليم ، والتعليقات ، والتأملات حول الأحداث الهامّة ، والأسلوب الجميل في عرض الوقائع بصورة متسلسلة ، متماسكة .

وفي الواقع لم يفكر أبو الفداء ، بادىء الأمر ، في تأليف كتاب شامل . فلم يضع مخططاً لأجزاء الكتاب وفصوله ، ولم يقصد توجيه الكلام إلى القراء ، وشرح آرائه في أحداث التاريخ وتعليلها . وهو إنما قام بتدوين بعض التواريخ لتكون تذكرة له تغنيه عن مراجعة الكتب المطولة ، وقد كتب هذه المذكرات بأسلوب بسيط ، بل جاف ومختصر للغاية .

على الرغم من هذه الشوائب فقد نال كتاب (المختصر في أخبار البشر) شهرة واسعة سواء في العالم الإسلامي أو في بلاد الغرب . والسبب في هذا التقدير هو أن أبا الفداء استطاع اختصار مجموعة من الكتب التاريخية القيمة ، ضاع بعضها ، وألف منها خلاصة مكثفة ، منقحة ، بذل كل جهده في تحقيق وضبط ما ورد فيها من تواريخ وأسماء . وإذا كان الباحثون في الوقت الحاضر لم يعودوا يرجعون إلى كتاب (المختصر في أخبار البشر) كمنبع للمعلومات عن الأمم القديمة والعصور الإسلامية الأولى بعد أن نشرت المصادر الأصلية ، المفصّلة ، فإن الفصول الأخيرة من الكتاب المتعلقة بالعصر الذي عاش فيه المؤلف ، وبالأخص زمن الحروب الصليبية وعهد الأيوبيين والخوارزميين والمماليك ، ما زالت تستحق كل اهتمام ، لأن قسماً كبيراً من حوادث هذه الحقبة قد شاهدها أبو الفداء بنفسه ، واشترك فيها وأحسن وصفها بأسلوب مبين ، واضح ، دقيق ، بعيد عن التزويق والتنميق ، مقتصراً على الأمور الهامة . ولعل من أهم العوامل التي دفعت المستشرقين إلى الاعتماد على كتاب (المختصر في أخبار البشر) هو التزام

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المؤلف بهذه الطريقة العلمية ، الموضوعية ، حتى عندما يسرد حوادث الحروب الصليبية ، أو يتكلم على أفراد أسرته ، دون أن يبدو عليه شيء من التعصب والانحياز .

وقد اتجهت أنظار الباحثين الأوروبيين منذ أوائل القرن الثامن عشر ، إلى نشر أجزاء منه مع ترجمتها اللاتينية . ثم نشر الكتاب كلّه على مراحل خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وترجم إلى اللاتينية والفرنسية والانكليزية ، كما نقل إلى لغة (الأوردو) وطبع في دلهي سنة ١٨٥٦ . وقد ظل الكتاب يعتبر مدة طويلة أهم مصدر يستند إليه المستشرقون في دراساتهم لتاريخ العرب والإسلام ، وبالأخص تاريخ الحروب الصليبية . ويقول (رينو) و (دوسلان) إنه قد حوى أخباراً ما كان يتسنى معرفتها بدونه (١) .

إن أبا الفداء الذي احتفلنا بمرور ٧٠٠ سنة على مولده يستحق كل عناية وتقدير ، لما امتاز به من معرفة واسعة ، وحب للاطلاع والبحث ، ومن نزعة علمية ، وطريقة انتقادية ، ونظرة حيادية ، موضوعية . وهو جدير بأن ندرس آثاره ونبرز قيمتها العلمية ، ومكانتها في تاريخ العلوم ، وتطور الفكر البشري .

محمد كامل عياد

(١) راجع كتاب (تقويم البلدان) طبعة باريس ١٨٤٠ التصدير ص ٢٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net